أصحيح انه لم يكن هناك من أحبها سواه، أم أن هذا القول لا يعدو كونه اسقاطاً لا يعني سوى أنه ما كان ثمة من أحد أحبته هي سوى ابراهيم؟ إنها سرعان ما تنقض ذاتها لتدعم صحة هذا المذهب، أي أن ما قالته ليس إلا إضفاء حقاً، فلقد أحبها الكثير من الناس. ها هي ذي تقول:

وراحت الحياة
تعطي، فقد أحبني الكثير،
أحبني الكثير غير أنني
بقيت عطشى دونما ارتواء
كأنما كل الذي بلغته سراب.

ثم تتابع تصويرها لسعيها وراء السراب الذي كثيراً ما تمنت أن تلمسه مجسماً، أن تراه «شيئاً يمسُّ بالراحتين».

ثمة حقاً تثبت على موقف طفلي، موقف مسحوب من بواكير العمر، من عهود الغضاضة الروحية. وقد يكون هذا التثبت جزءاً من سر الأزمة الداخلية التي تعيشها فدوى، تكابدها وتعانيها دونما انقطاع، إذ البعد النفساني لا ينقطع ولا يضيع. ولهذا، أرى أن من الخطأ الظن بأن الدواوين الثلاثة الأخيرة من شعر فدوى ليست استمراراً نفسياً للدواوين الثلاثة الاولى. وربما كان في ميسورنا الذهاب إلى أن قطبي الصراع الكامن في أعماقها والعامل على اقلاق روحها هما الترجح بين حالة التثبت الطفلية وحالة الانعتاق من هذا التثبت والاكتمال بالآخر. إذ هي دوماً تنتظر ساعة خلاص، تنتظر الفارس المنقذ، وهو من صوَّرته بمنهجية رمزية في «نبوءة العرافة»، المنشورة في الديوان السادس. وهنا تتبدى الشاعرة وهي تبذل جهداً ملموساً من أجل التخلص من تثبتها الطفلي. وبين هذين الطرفين المتعارضين، الانتماء العاطفي إلى الأقارب والانفتاح العام على الغرباء، تتأرجح الشاعرة، فيصطرع في داخلها منزعان متضاربان تعوزها القدرة على التوفيق بينهما، فتكون النتيجة القلق. ويبدو أن لا بد لكل نفس من أن تكابد شرخها الخاص.

وربما كانت النفس معتلة في منشئها السري أو مصدرهـــا الميتافيزيقي المجهول، ولهذا فإن تثبتها على نقطة ماضية، برهة من الماضي الميت، قد لا يكون إلا مجرد ذريعة للمواظبة على الوجع الذي هو جزء من أصالتها وطبعها. فقد تعشق النفس ما يستحيل استرداده لتجد عذراً في أن تنفتح على الآخر الذي من شأنه أن يهشم قوقعة النفس وأن يفك حصارها ويأخذ بها إلى السعادة التي لا تبتغيها لما لها بالوجع من تعشق. ولهذا يمكن القول بأن شعور فدوى بضرورة تكرار حالة العزلة هو ما جعلها تكثر من استعمال مفردات تدل على الوحدة والسجن والقيد، وما إلى ذلك من الفاظ، الأمر الذي يشي بأنها تهوى الألم أكثر مما تهوى الفرح. وفي ظني أن هذا هو طبعها السابق على أية رضوض نفسية يمكن أن تأتي بها الحياة.

وعلى أية حال، أراني أُخول نفسي حق الزعم بأن وفاة أخيها ابراهيم قد تركت في نفسها صدمة لم تبرأ منها حتى اليوم، تماماً مثلما كانت وفاة والدة السياب صدمة ورضّاً شديد العمق والوجع، لم يبرأ منه طوال حياته.